خشية الله في حال غيبه أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة ويحتمل أن المراد بخشية الله بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابلٌ للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختيارياً حيث يعاين العذاب وتأتي آيات الله وهذا هو الظاهر[1].

﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه، ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي: دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشرور، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص، ﴿ذلك يوم الخلود﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من المكدرات، ﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾ أي: كل ما تعلقت به مشيئتهم فهو حاصل فيها ولهم فوق ذلك ﴿مزيد﴾ أي: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعظم ذلك وأجله وأفضله، النظر إلى وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص * إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد﴾** يقول تعالى ـ مخوفاً للمشركين المكذبين للرسول ـ: **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾** أي: أمماً كثيرة هم أشد من هؤلاء بطشاً أي: قوة وآثاراً في الأرض.

ولهذا قال: **﴿فنقبوا في البلاد﴾** أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمروا، ودمروا، فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، فـ **﴿هل من محيص﴾** أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم، **﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾** أي: قلب عظيم حيٌّ ذكيٌّ زكيٌّ، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله، تذكر بها، وانتفع فارتفع[2]، وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعاً يسترشد به، وقلبه **﴿شهيد﴾** أي: حاضر، فهذا له أيضاً ذكرى وموعظة، وشفاء وهدى.

وأما المعرض، الذي لم يلق[3] سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيده شيئاً، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته.

﴿٣٨ ـ ٤٠﴾ **﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب * فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾** وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة، ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات **﴿السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾** أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، من غير تعب ولا نصب، ولا لغوب، ولا إعياء، فالذي أوجدها ـ على كبرها وعظمتها ـ قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى، **﴿فاصبر على ما يقولون﴾** من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم وله بطاعة ربك وتسبيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات. فإن ذكر الله تعالى مُسلٍّ للنفس، مؤنس لها، مُهوِّنٌ للصبر.

﴿٤١ ـ ٤٥﴾ **﴿واستمع يوم يناد المناد من مكانٍ قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشرٌ علينا يسير * نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾** أي: **﴿واستمع﴾** بقلبك نداء المنادي وهو إسرافيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور **﴿من مكان قريب﴾** من الخلق[4] **﴿يوم يسمعون الصيحة﴾** أي: كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة **﴿بالحق﴾** الذي لا شك فيه ولا امتراء.

﴿ذلك يوم الخروج﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل شيء، ولهذا قال: **﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض**

---

(١) من قوله: ويحتمل إلى: هذا هو الظاهر ليس في ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وارتفع.

(٣) في ب: لم يصغ.

(٤) في ب: من الأرض.

عنهم﴾ أي: عن الأموات[1].

﴿سراعاً﴾ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة، ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي: هين[2] على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة، ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ لك مما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمورك، ونصرنا لك على أعدائك، فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والتأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي: مسلط عليهم ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ ولهذا قال: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والفطر، من محبة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾.

آخر تفسير سورة ق، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير سورة الذاريات
مكية

﴿١ ـ ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسمات أمرا * إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع﴾ هذا قسم من الله الصادق في قيله، بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أن وعده صدق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون.

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذروا في هبوبها ﴿ذروا﴾ بلينها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها، ﴿والحاملات وقرا﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد، و﴿الجاريات يسرا﴾: النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتتزين بها السماوات، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار بها، ﴿والمقسمات أمرا﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدّر له وما حُدّ ورسم، ولا ينقص منه.

﴿٧ ـ ٩﴾ ﴿والسماء ذات الحبك * إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك﴾ أي: والسماء ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حبك الرمال، ومياه الغدران، حين يحركها النسيم، ﴿إنكم﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ، ﴿لفي قول مختلف﴾ منكم من يقول ساحر، ومنكم من يقول كاهن، ومنكم من يقول مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة، الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل، ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي: يصرف عنه من صرف عن الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه، واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه، كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ، متفق [يصدق بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ ﴿قتل الخراصون * الذين هم في غمرة ساهون * يسألون أيان يوم الدين * يوم هم على النار يفتنون * ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ يقول تعالى: ﴿قتل الخراصون﴾ أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، ﴿الذين هم في غمرة﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿ساهون﴾ ﴿يسألون﴾ على وجه الشك والتكذيب أيان يبعثون أي: متى يبعثون، مستبعدين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي: يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم]: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال، ﴿هذا﴾ العذاب، الذي وصلتم إليه، [هو] ﴿الذي كنتم به تستعجلون﴾ فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال.

﴿١٥ ـ ١٩﴾ ﴿إن المتقين في جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ يقول تعالى في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم، التي أوصلتهم[3] إلى

(١) في ب: عن الخلائق.

(٢) في ب: سهل.

(٣) في ب: وصلوا بها.